

OPEN ACCESS

Submitted: 30 January 2019

Accepted: 21 March 2019

اللسانيات العربية من خلال كتاب سيويه في ضوء اللسانيات الغربية الحديثة (دراسة مقارنة)

عمارية حاكم

جامعة سعيدة، الجزائر

hakemamaria13000@gmail.com

ملخص

رغم التباين الكبير في الظروف التي تكشف كلا من المنهجين: العربي والغربي والسياقات التاريخية والثقافية الخاصة التي يتميز بها كل واحد منهما، لم تعد المقابلة ما بين منهج سيويه أو سواه من اللغويين العرب القدامى في دراسة اللغة، وبعض مناهج المدارس اللغوية الحديثة ضرباً من المجازفة أو المفارقة بسبب ما تنطوي عليه من مقارنة بين لغات تنتمي إلى أسر لغوية مختلفة، وذلك أن ثمة قدرًا كبيراً من التشابه بينهما في الاتجاهات والآراء والنظريات المتصلة بالبحث اللغوي التي قد تحيل إلى المتأمل والمتمعن فيها أنها صدرت من منبع واحد، وليس أدل على ذلك ما أقر به كبار الباحثين اللغويين أمثال كارتر.

إن مجال الدراسة ليس بتحديد فضل التقدم والسبق لسيويه، وإنما هو الكشف عن الملامح المشتركة بين ما جاء به في الكتاب منذ قرون، وبين الاتجاهات الغربية الحديثة، كعلم اللغة الاجتماعي (Sociolinguistics)، والأنثروبولوجيا اللغوية (Linguistic Anthropology)، اعتماداً على السياق الاجتماعي عند سيويه، بالإضافة إلى الفلسفة وعلم النفس والتداولية (Pragmatique)، التي تمثل علاقة وطيدة بالتبليغ ودورها الفعال في الكشف عن مقاصد المتكلمين، ومن العجب أن يجد الباحث كل ما يضارع هذه الاتجاهات والنظريات الغربية في كتاب سيويه، يتضح هذا من خلال المقارنة بين سيويه وأبرز أعلام اللغة الغربيين، أمثال: دي سوسير، ومالينوفسكي، وبلومفيد، وكفتكنشتاين، وهابرماس، وأوستين وغيرهم. ووفق هذا الطرح، سأعالج في ورقتي البحثية هذه؛ اللسانيات العربية من خلال كتاب سيويه من منظور اللسانيات الغربية الحديثة.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، النحو، سيويه، الدراسات الغربية، المنهج، المقارنة

1- ينظر: سارة الخالدي، أثر سياق الكلام في كتاب سيويه، ص 109.

2- ينظر: نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ط 1، (عمان: كلية الآداب بالجامعة الأردنية، 1980)، ص 20.

للاقتباس: حاكم ع، «اللسانيات العربية من خلال كتاب سيويه في ضوء اللسانيات الغربية الحديثة (دراسة مقارنة)»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 1، 2019.

<https://doi.org/10.29117/Ansaq.2019.0089>

© 2019، حاكم، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر وفقاً لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

Arabic linguistics in the book of Sibawayh in the Light of Modern Western Linguistics (Comparative Study)

Hakem Amari

University of Saida - Algeria

hakemamaria13000@gmail.com

Abstract

Despite the great variation in the circumstances that reveal both the Arab and Western approaches and the special historical and cultural contexts that characterize each one of them, the comparison is no longer between Sibawayh's curriculum or other ancient Arabic linguists in the study of language. Paradoxically because of the comparison between languages belonging to different linguistic families³, there is a great deal of similarity in the attitudes, views and theories related to linguistic research that may reveal to the contemplator and the discoverer that they are from one source⁴. Evidence of this phenomenon has been acknowledged by senior researchers like Carter.

The area of study is not the identification of the progress and the precedence of Sibawayh, but the discovery of the common features of what has been written in the book for centuries, and the modern Western trends such as sociolinguistics and linguistic anthropology. In addition to the philosophy, psychology and deliberation (pragmatic approach), which is a strong relationship with the reporting and its effective role in the detection of the purposes of the speakers, it is surprising that the researcher finds all that corresponds to these trends and Western theories in the book of Sibawayh.

This is illustrated by the comparison between Sibawayh and the most prominent Western linguists, namely, de Saussure and Malinowski, Blumvid and Kvtkinstaan, Habermas, Austin, and others.

In this research, I intend to address the Arabic linguistics through Sibawayh's book from the perspective of modern western linguistics.

Keywords: Grammar; Linguistics; Sibawayh; Western studie; Curriculum; Comparison

3- See: Sibawayh, *The Impact of the Context of Speech*, p. 109.

4- Nihad al-Mousa, *The theory of Arabic grammar*, p. 20.

للاقتباس: حاكم ع، «اللسانيات العربية من خلال كتاب سيبويه في ضوء اللسانيات الغربية الحديثة (دراسة مقارنة)»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 1، 2019

<https://doi.org/10.29117/Ansaq.2019.0089>

© 2019، حاكم، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر وفقاً لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

مقدمة

نشير إلى أن كثيراً من العلماء الغربيين -أنموذج المقارنة- يعترفون بأن دراساتهم اللغوية لم تفتح على سائر العلوم الاجتماعية، ولم تتكامل مع الدراسات الإنسانية المختلفة إلا بدءاً من منتصف القرن العشرين⁵، نستدل على ذلك بأحد الأنثروبولوجيين: وهو مالفينوسكي الذي يطالب النحويين بتغيير المنهج الذي يتبعونه في بحوثهم اللغوية والمقتصر على الأوراق والأعمال المكتوبة، مقترحاً عليهم تبني المنهج التجريبي الذي يعتمد اللغة المنطوقة الحية مادة أساسية للبحث⁶.
والحق أن المقام لا يتسع لعرض كل أوجه التشابه بين سيبويه وأبرز الأعلام السابق ذكرهم، وإن كنت قد أشرت سابقاً إلى كثير من النقاط المتعلقة بها، ولذلك سأعرض إلى المقارنة بصورة مقتضبة لتدارك ما يكون قد فاتني من إشارات جلييلة، لم أذكرها من قبل في متن هذا البحث.

أ. سيبويه ودي سوسير

لا أحد ينكر قيمة كتاب «محاضرات في اللسانيات العامة» لصاحبه فردينان دي سوسير الذي ظهر سنة 1916 أي بعد وفاة صاحب هذه المحاضرات بثلاث سنوات 1913، إذ كان فاتحة عهد جديد بالنسبة للدراسات اللسانية بوجه خاص والعلوم الإنسانية بوجه عام⁷، وبخاصة عندما تحدث عن «علم اللسان الخارجي» الذي يعنى بدراسة تاريخ الشعوب وحضاراتها لفهم البيئة اللسانية الداخلية الخاصة بكل منها⁸، ولذلك ذهب دي سوسير إلى أنه ينبغي دراسة تعبيرات ومفردات لغة شعب ما داخل نظامها اللغوي الخاص، إذ لا وجود لتلك التعبيرات إلا في علاقتها وفي تقابلها مع الكلمات الأخرى التي ارتبطت بها⁹.

ولقد استطاع دي سوسير بحق أن يخرج الدرس اللغوي من التصورات الفلسفية، والأحكام المسبقة التي فرضتها ظروف فكرية سادت أوروبا ردحاً من الزمن من خلال اعتماده على مجموعة من المبادئ، غدت هي الموجه الأساس للدرس اللساني الأوربي بوجه خاص، والدراسات اللسانية العالمية بوجه عام، وهي السيات التي لا زالت تطبع التفكير اللغوي الأوربي بخاصة في وجهيه اللساني المحض من جهة، والسيميائي ذي التوجه النقدي الأدبي من جهة أخرى¹⁰.

ولعل أهم تغيير أحدثه دي سوسير في تاريخ علم اللغة الحديث عند الغرب هو ضرورة الابتعاد عن المنهج الزماني (Diachronique) في دراسة اللغة، واتباع المنهج التزامني (Synchronique) الذي يبحث في التقنيات والطرق التي يتكلم بها الناس في مجتمع لغوي محدد وفي وقت معين¹¹، جاعلاً اللغة المنطوقة في المقام الأول لدراستها دراسة موضوعية كما هي وكما تظهر؛ أي في ذاتها ومن أجل ذاتها بغية الكشف عن حقيقتها¹².

وهكذا يكون ما نادى به دي سوسير في الغرب في القرن العشرين، قد سبقه إليه سيبويه وأسلافه من النحاة منذ ما يزيد عن اثني عشر قرناً¹³، حينما قامت أسس نظرياتهم اللغوية على اللغة المنطوقة التي كانوا يسمعونها من معينها، أي بصورة مباشرة من الناطقين بها، مع ما وضعوا لهذه المادة المسموعة من شروط زمانية ومكانية لصحة الأخذ والقبول بها¹⁴.

لقد ألح سيبويه في مواطن كثيرة من كتابه إلى أهمية دراسة بعض التراكيب العربية من خلال ربطها بتراكيب أخرى مستعملة لدى العرب وقياسها عليها، مشدداً على أن تكون هذه التراكيب متداولة في بيئتهم، وإلا قوبلت بالرفض، وإن كانت منسجمة نحويًا، فالمنطق العام أو السليقة الفطرية الطبيعية للناطقين الأصليين هي مقياس الصحة أو عدمها، كما في «باب الاستقامة والإحالة» هذا فضلاً عن وعيه بضرورة إشراك العوامل الخارجية غير اللغوية في تحليل اللغة وتقعيدها خاصة ما تعلق بسياق الموقف.

5- See: John Lyons, *New horizons in linguistics* (England: Penguin Books, 1972), p. 8-9.

6- See: Bronislaw Malinowski, *The dilemma of contemporary linguistics in language in culture and society* (New York: Harper and Row, 1964), p. 63.

7- فرديناند دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة: عبد القادر قنيني (إفريقيا الشرق، 1987)، ص 3.

8- ينظر: الخالدي، أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه. مرجع سابق، ص 112.

9- ينظر: دي سوسير، محاضرات في اللسانيات العامة. مرجع سابق، ص 31-32.

10- نصر الدين بوحسان، «سيبويه والنقد اللساني العربي»، مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ع 8، (2010).

11- الخالدي، أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه. مرجع سابق، ص 112-113.

12- محمود السعدان، علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي (مصر: دار المعارف، 1962)، ص 52.

13- الموسى، نظرية النحو العربي. مرجع سابق، ص 23-44.

14- حلمي خليل، من تاريخ النحو العربي (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995)، ص 37-38.

ب. سيويه وبلومفيلد

تجدر الإشارة إلى سيناريو «جاك وجيل والتفاحة» في نظرية التبليغ عند «بلومفيلد»، فمن يكون هذا الرجل؟ ليوناردو بلومفيلد «Leonardo Bloomfield» من أبرز الأعلام اللغويين وأكثرهم تأثيراً في تاريخ علم اللغة الأمريكي في أوائل القرن العشرين¹⁵، درس اللغة من منظار أنثروبولوجي وعلمي¹⁶، غير أنه قد تبني المذهب السلوكي (Behaviouristic School) في تحليل الكلام الذي يقوم على اكتشاف ما سوف يفعله الفرد في موقف معين أو حين يرى شخصاً ما يفعل شيئاً، وهذه الطريقة تساعد على التنبؤ بالاستجابة حين نعرف «المنبه» أو «المثير»¹⁷.

يفهم مما سبق أنفاً، أن بلومفيلد ينظر إلى الحدث الكلامي على أنه صورة من صور السلوك الجسماني، ولذلك يتطلب فهم الموقف تحليل الأحداث العملية التي تسبقه والتي تلحقه زيادة عن دراسته هو بحد ذاته¹⁸، وأفضل نموذج يقدمه بلومفيلد عن تصوره هذا هو سيناريو (جاك وجيل والتفاحة) الذي يمثل نظرية في التواصل قائمة على المثير والاستجابة.

وإذا كان بلومفيلد قد أورد نموذجاً واحداً لتصوره، فإن في الكتاب شواهد كثيرة يصور فيها سيويه مشاهد من الأحداث الكلامية التي نتجت عن مثيرات لغوية وغير لغوية، ذكرناها أكثر من مرة في مواضع تطلبت التمثيل بها، ولا بأس من ذكرها للتدليل على مزاعمنا وهي كالآتي:

■ الأحداث العملية السابقة على الكلام (ردّ الفعل اللغوي)

المثير اللغوي/المثير غير اللغوي

- رؤية الحاج.
- رؤية رجل يضرب أو يقتل أو يشتم. «زيداً»
- رؤية رجل يكاد يرتطم بالحائط. «رأسك والحائط»
- رؤية رجل يسدد سهماً نحو القرطاس ثم سماع صوت تسديد السهم دون رؤيته «القرطاس والله».
- رؤية أناس يرقبون الهلال ثم سماع صوت تكبيراتهم. «الهلال وربّ الكعبة»
-

يلاحظ صاحب النظر الثاقب أن عنصر الاستجابة مغيب، وكذلك الأحداث التي تلي الحدث الكلامي، ولذلك ما يبرره عند صاحب الكتاب، وهو توقعات المتكلم، وهذا ما يعرف في علم النفس اللغوي (Psycholinguistique) بـ«داعي المعاني» «Word association game» أو «Stimulus and response model»، حيث يعرض العالم أو الباحث اللغوي مجموعة من المثيرات (stimulus) أمام أحد الأشخاص ليدرس استجابته الكلامية الفورية عليها¹⁹.

ج. سيويه وتشومسكي

يتفق تشومسكي في كثير من الجوانب مع سيويه، خاصة في ظواهر التحويل كالتقديم والحذف والزيادة وغيره وكذا قواعد الاشتقاق، ولا يتسع المقام هنا لعرض أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فقط أننا سنلمح إلى الجانب النفسي في كتاب سيويه في دراسة اللغة والذي يحتل حيزاً مهماً، لذلك يذهب تشومسكي إلى أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين علم اللغة وعلم النفس، على الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الحقلين أثناء التطبيق، وذلك أن النواحي النفسية تتدخل في عملية بناء التركيب، إذ هي المسؤولة عما قد ينتج عن ذلك من أخطاء أو تشوهات أو جمل غير تامة تزيد أو تغير في تسلسل الكلام²⁰، وهذا الذي يلمسه الباحث عند سيويه حين تحدث عن بدل النسيان والغلط حين يستدرك المتكلم خطأه فيعمد إلى تصحيحه أو حتى الإضراب عنه.

د. سيويه ومالينوفسكي

في رسالته «دلالة السياق» يعرفنا «ردة الطلحي» بالينوفسكي على أنه من أبرز الأنثروبولوجيين (Anthropologistes) الذين أمدوا علم اللغة بأبعاد إنسانية واجتماعية فائقة الأهمية، يظهر ذلك في الأثر الكبير الذي تركه فيمن جاء بعده من اللغويين

15- ينظر: الخالدي، أثر سياق الكلام في كتاب سيويه. مرجع سابق، ص 114.

16- المرجع نفسه.

17- ينظر: عبده الراجحي، النحو العربي، ص 37.

18- المرجع نفسه، ص 38-39.

19- See: Herbert H. Clark, "Word association and linguistic theory", in *New Horizons in Linguistics* (England: Penguin Books, 1972).

20- John Lyons, *Chomsky* (The Harvester Press), p. 110-111.

واللغويين الأنثروبولوجيين، أمثال: فيرث، وجسبرسن وجون بير²¹.

ويحرص «مالينوفسكي» على أن يفهم اللغة يحتاج إلى مساهمات من فروع علمية عديدة، لا سيما من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا اللذين يمداننا بفهم أعمق لطبيعة الإنسان وثقافته²²، لأنه لا سبيل إلى الفهم العميق للبناء اللغوي ما لم يفهم هذا الإنسان الناطق بهذه اللغة، إضافة إلى الظروف المحيطة التي تكتنف كلامه، وذلك أن معنى أي لفظة يعتمد على السياق الذي وردت فيه²³.

لقد أصبح واضحاً أن دراسة أي لغة يتكلم بها قوم يحيون ظروفًا معينة مغايرة لظروفنا، ويملكون ثقافة غير التي نملكها، يحتم علينا الاطلاع على ثقافتهم وظروف معيشتهم وخصائص بيئتهم، بل وحتى التعرف على عاداتهم وتقاليدهم التي يظهر أثرها في أنماطهم التعبيرية، وإلا تعذر علينا فهم كلامهم أو مقاصدهم، ولقد رأينا أن سبويه قد تفتن إلى هذه الحتمية، إذ طبّقها تطبيقاً محكماً حين إصراره على إدخال عنصر السياق الواقعي الذي جرى في الكلام الذي كان يجلله ويقعد لمبناه، بالإضافة إلى إشاراته إلى بعض من قيم العرب الاجتماعية.

وتأكيداً على وعي سبويه لمسألة أن دراسة لغة ما، لا يتم إلا بالاطلاع على خصائص أهلها، نورد بعض شواهد على ذلك:

- يقول في معرض تسويغ رفع النعت: «له عِلْمٌ عِلْمُ الفقهاء، وإنما كان الرفع في هذا الوجه، لأن هذه خصال نذكرها في الرجل، ولم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل في حال تَعَلَّم ولا تَفَهَّم، ولكنك أردت تذكر الرجل بفضل فيه... كقولك: له حسبٌ حسبُ الصالحين، لأن هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحلية عند الناس وعلامات... وإذا قال: له عِلْمٌ عِلْمُ الفقهاء، فهو يخبر عما قد استقر فيه قبل رؤيته وقبل سماعه منه، ولم يرد أن يخبر أنه إنما بدأ في علاج العلم في حال لقيه إياه، لأن هذا ليس من ما يثنى به، وإنما الثناء في هذا الموضوع أن يخبر بما استقر فيه...»²⁴.
- وفي باب منع أن يكون للأسد اسم عِلْمٍ يختص به قال: «وإنما مُنِعَ الأسدُ أن يكون له اسم معناه زيدٌ، لأن الأسدَ وما أشبهها ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجوا إلى أسماء يعرفون بها بعضاً من بعض...»²⁵.

يتضمن النص الأول تقنية تحليل الحركات الإعرابية (تعليل رفع الاسم «علم» لكونه نعتاً) وكذلك تعليل ما تواضع عليه الناس في تحديدهم لمفهوم الثناء ومعانيه، ويكون سبويه بهذه التقنية قد ألف بين منهجين، المنهج النحوي (الحركات الإعرابية) والمنهج الأنثروبولوجي (تواضع الجماعة)، والقصد من هذا الجمع بين المنهجين، هو أن العلامة الإعرابية لا يتم لها معناها النحوي إلا إذا وقعت في أبعادها الاجتماعية الصحيحة²⁶.

أما النص الثاني، فإشارة سبويه جد واضحة، وهي أن الناس ليسوا في حاجة إلى تسمية الأسود في الوقت الذي تكثر فيه الأسماء الخاصة بالحيوان، «ألا تراهم اختصوا الخيل والإبل والغنم والكلاب وما يثبت معهم»²⁷. وهو الاتجاه نفسه الذي دعا إليه مالينوفسكي الذي «لاحظ بأن اللغة الأصلية للمتكلمين (Native Language) تحوي تراكم نحوي في منتهى البساطة، وهي إلى ذلك تحتضن قدرة تعبيرية كبيرة تتحقق دائماً من خلال المقام والموقف»²⁸.

إن لكل قبيلة أو مجتمع بدائي كما لكل مجتمع متحضر مخزون من الكلمات وأنماط من القواعد التي لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا من خلال ارتباطها بمتطلباتهم العقلية، ومن هنا فإن مهمة الإثنوغرافي (عالم الأنثروبولوجيا الوصفية) (Ethnographer) الكشف عن ذلك المخزون وما يتعلق به من قواعد²⁹.

21- ينظر: ردة الطليحي، دلالة السياق، رسالة دكتوراه (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2002)، ص 181.

22- See: Bronislaw Malinowski, "The Problem of Meaning in Primitive Languages", Supplement I to Ogden, C. K./Richards, I. A., *The Meaning of Meaning* (London: Routledge/Kegan Paul), 1923, p. 298.

23- الخالدي، أثر سياق الكلام في كتاب سبويه. مرجع سابق، ص 118.

24- سبويه، الكتاب، ج 1، ص 361-362.

25- المرجع نفسه، ج 2، ص 94.

26- نهاد الموسى، «الوجهة الاجتماعية في منهج سبويه»، مجلة حضارة الإسلام، ع 1، (1974)، ص 74.

27- سبويه، الكتاب. المرجع نفسه، ج 2، ص 94.

28- المرجع نفسه، ص 94.

29- See: *The problem of meaning*, p. 300.

ويبدو أن سيبويه يكون قد كشف عن هذه المسألة منذ قرون، ويظهر هذا جلياً في قيامه بمهمة النحوي الذي يقعد واللغوي الذي يفصح والإثنوغرافي الذي يكشف. ومهما يكن من أمر، فإن علم اللغة الاجتماعي يلاحظ أن الخطاب يرتكز حول الناس أو الأفراد «People - centered»، في حين أن الكتابة تركز على الموضوع (Topiccentered)، إذ الخطاب يولي عنايته الشديدة لجمهور المستمعين أو المشاهدين؛ لأن غايته إشراكهم في الحوار والحديث³⁰، ولذلك فإن أغلب الشواهد الواردة في الكتاب تكثُر فيها أفعال النهي والأمر والإخبار والاستفهام والتحذير وما شابه ذلك من معاني، ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأشخاص لا بالموضوعات.

هـ. سيبويه وفنكنشتاين

تضاربت آراء بعض المفكرين الغربيين حول «فنكنشتاين»، إذ يعدونه الفيلسوف الأول للقرن العشرين، خاصة بعد نشر الكتاب المشهور «Philosophical investigations»، بينما يرى راسل (Russel) وآخرون أن لا فائدة ترحى من هذا الكتاب بناءً على نظر الكثيرين من الفلاسفة الذين رأوا أنه غامض ومثير وعسير الفهم³¹، والحق إن «فنكنشتاين» كان يؤاخذ الفلاسفة على استعمالهم للغة لا يفهمها كثير من الناس غيرهم، ولذلك غدت الفلسفة لغة خاصة لا يفهمها إلا المتحدث بها³²، دون أن يلقوا لقواعد النحو بالا لأساليب التعبير إلا فيما يعنيه على حل قضاياهم الفلسفية³³، ومن هنا فلا ريب في أن الاتجاه الفلسفي في دراسة اللغة؛ يختلف في أبعاده وغاياته عن الاتجاه اللغوي الصرف في دراسة القضايا اللغوية³⁴، ولكن هذا لا يمنع اللغويين من الاستفادة من تحليلات ونظرات الفلاسفة العميقة في جوهر اللغة.

يدرك كل باحث مطلع على أعمال «فنكنشتاين» الفلسفية أنه ينتصر للغة الطبيعية، لغة التخاطب التي أكثر الحديث عنها، وذلك أن التواصل أو التخاطب بين الناس «Verbal communication» كان شغله الشاغل، وهو الذي أطلق على التخاطب اللغوي اسم «ألعاب الكلام (Language games)»، يفهم من هذا أن ممارسة اللغة عنده تعني بأن هناك طرقاً ما ينطق بالكلمات، وطرفاً آخرًا يعمل وفقها³⁵، على قدر ما تم فهمه واستيعابه لما سمعه، لذلك وجدناه يطرح تساؤلاته حول الكيفية أو التقنية التي يصل بها المعنى من المتكلم إلى المستمع، وعلاقة ذلك بالسياق الذي يرد فيه الكلام، قائلاً: «هل يتوقع المتكلم أن يصل المعنى الذي أراده من كلامه إلى المخاطب كما هو مائل في ذهنه هو، أم أنه ينتظر من هذا المخاطب أن يحد من فحوى كلام محدثه؟ وإذا حاول المتكلم توضيح مراده من خلال الأمثلة، فقد يتبادر إلى ذهن السامع أكثر من تفسير واحد لما يسمعه، فيتوجب عليه في هذه الحال أن يسأل المتكلم ويستفسر منه، وما على المسؤول إلا الإجابة»³⁶.

تذكرنا هذه الأسئلة بمنهج سيبويه في تحليل وتفكيك بعض التعابير، كتلك التي مثلنا بها في باب النعت الوارد في الكتاب في قوله: «مررت برجلين/مسلم وكافر»، حيث يرى سيبويه أن هذه العبارة هي في الأصل مزيج من كلام المتكلم، وإجابة عن سؤال المخاطب الذي يتوقع منه السؤال وإن لم ينطق به (بمن مررت؟). وفي مجال فلسفة التواصل يضرب «فنكنشتاين» للمتلقي مثالا لتوضيح علة التباس المفاهيم في بعض العبارات، بسبب احتمالها معاني متعددة من التفسيرات، وذلك بالعبارة الآتية: «Moses did not exist»، هذه العبارة التي تحتل ثلاث دلالات متباينة³⁷.

- إن الإسرائيليين لم يكن لديهم قائد حينها خرجوا من مصر.
- قائد الإسرائيليين لم يكن اسمه موسى.
- ليس هناك أحد أنجز ما روى الكتاب المقدس عن موسى.
- وهي مشابهة للمثال الذي أورده سيبويه في قوله: «ما أتاني رجل» التي تحتل عدة دلالات أوضحها كالاتي³⁸:
- ما أتاك رجل، أي أنك أكثر من ذلك.

30- ينظر: الخالدي، أثر سياق الكلام عند سيبويه. مرجع سابق، ص 124.

31- Ludwig Wittgenstein, *Understanding and meaning* (G. P. Baker), p. 5.

32- See: Michael Forster, *Wittgenstein on the arbitrariness of grammar* (Princeton University Press), 2004, p. 1.

33- See: Austin, J. L., *How to do things with words* (Oxford University Press), 1981, p. 2.

34- See: Ludwig Wittgenstein, *Rules, grammar and necessity*, Baker G.P (Oxford), 1985, p. 54.

35- Ludwig Wittgenstein, *Philosophical Investigations* (Oxford: Blackwell Publishing), 2001, p. 4.

36- المرجع نفسه، ص 71.

37- Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, p. 31.

38- سيبويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 55.

- ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك.
- ما أتاك رجل، أي أتاك الضعفاء.

فإذا قيل ما أتاك أحد صار نفيًا عامًا لهذا كله³⁹، ليس هذا فقط، وإنما هناك أيضا علاقة مشابهة فيما يخص تقنية الحذف التي تناولها سيوبه بالتحليل والتعليل معولا على سنن العرب وما اعتادت عليه، وهو الأمر نفسه الذي وجدناه عند الفيلسوف «فنكنشتاين» وهو أن «معنى كلمة ما يكمن في كيفية استخدامها»⁴⁰، يفهم من هذا الرأي دور السياق في تحديد مقاصد المتكلمين، إذ هو الكفيل بإزالة الغموض في فهم العبارة المنطوقة، وإن لم تكن مكتملة العناصر نحوياً⁴¹.

فالنطق بكلمة «Slab» يمكن أن تفهم فيها صحيحا إذا عرفنا السياق الذي قيلت فيه، ولمن قيلت؟! ولماذا؟! فإذا تصورنا على سبيل المثال أنها قيلت في مكان خاص بالبناء (ورشة بناء)، وأن الذي تلفظ بهذه المفردة هو أحد العمال مخاطبا بها زميله، أدركنا فوراً أنها مساوية لعبارة: «Bring me a slab» أو «Hand me a slab»⁴² أي: «ناولني البلاطة»، فالمتكلم يدرك أنه بكلمة واحدة سيفهمه المخاطب، لذا فهو لا يحتاج إلى تأليف العبارة كاملة وإنما يلجأ إلى الحذف تجنباً للتفاصيل التي هو في غنى عنها.

لذلك فهو يرى أننا إذا تمكنا من خلال استعمال كلمة واحدة فقط أن ندير «لعبة اللغة»؛ فإن هذه الكلمة تشكل جملة بمفردها، بينما لو تلفظنا بعبارة صحيحة نحوياً، ولكنها لم تؤد معنى تميزه الجماعة اللغوية «Language group» فإنها سترفض؛ لأنها تفتقر إلى الاستخدام المقبول⁴³، لذا فهو يركز على السياق ويولي اللغة العادية التي يتحدث بها الناس عناية كبيرة أكثر من اهتمامه باللغة المليئة بالمصطلحات الفلسفية، يتضح من هذه العناية «أنه يسعى إلى توضيح علاقة النحو باللغة الحية، ولا يطمح إلى تغيير اللغة العادية ولا إلى خلق لغة جديدة، بل يبتغي تبيين طريقة استخدامها»⁴⁴.

وفي حديثه عن الاستعمال المقبول، اتفق بين فنكنشتاين وسيوبه حينما تحدث عن تسويغ حذف الأفعال، بل وحتى الجمل باعتبار ذلك صحيحاً؛ لأنه مقبول معنى واستخداماً، خاصة وأن السياق الاجتماعي الذي يرد فيه الكلام يسمح بالاختصار والحذف؛ لعله هي أن المخاطب على دراية بغرض المتكلم، مثال ذلك ما ذكره سيوبه عن جواز النطق بكلمة واحدة هي «زيداً» إذا كان المخاطب فاهماً لقصد المتكلم الذي يريد إيقاع أمر ما، أو المواصلة في عمل ما يزيد من ضربه وغيره، إضافة إلى اختزال بعض من الكلام لارتباطه بأحداث سابقة تفهم من سياق الكلام، كمثال سيوبه عن ذلك: «إذا كان غداً فأتني»، هذه العبارة المتعلقة بمناسبات مختلفة والتي يفسرها سيوبه في قوله: «والمعنى أنه لقي رجلاً، فقال له: إذا كان ما نحن عليه من السلامة أو كان ما نحن عليه من البلاء في غداً فأتني»⁴⁵.

يستنتج مما أنف ذكره، أن فنكنشتاين «يقيم وزناً للقواعد النحوية التي يرى أنها تضبط استخدام الكلمات، وبالتالي فهي المسؤولة عن تحديد المعنى، فعلاقة النحو عنده باللغة تشبه إلى حد كبير علاقة قواعد اللعبة باللعبة، فكما أن هذه القواعد تتحكم بأصول ممارسة هذه اللعبة، وهي التي تسمح بالتحركات التي تجري داخلها، كما في الشطرنج مثلاً، فكذلك النحو يتحكم بمساحة ما من اللغة، وهو الذي يسوغ التحركات اللغوية داخلها، وهو إلى جانب ذلك يقرر فشل هذا الاستخدام أو نجاحه»⁴⁶، وهو المذهب ذاته الذي ذهبه سيوبه في تأكيده بالنسبة لعلاقة النحو الوثقى بالمعنى.

و. سيوبه والتداولية

■ سيوبه و«بول غرايس»

اهتم «غرايس» بموضوع التخاطب والحوار، وعمل على إيجاد نظام لها، فحدد هذا النظام في مبادئ أو قواعد جمعها في مبدأ سماه «مبدأ التعاون والاقتصار على جانب التبليغ». وبالعودة إلى هذه القواعد، يتجلى لنا أنها تنطبق تماماً على قواعد التبليغ

39- المرجع السابق.

40- See: Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, p. 18.

41- Wittgenstein, *Understanding and meaning*, p. 51-96

42- See: Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, p. 8.

43- Ibidem.

44- الخالدي، أثر سياق الكلام عند سيوبه. مرجع سابق، ص 129.

45- سيوبه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 224.

46- See: Wittgenstein, *Philosophical Investigations*, p. 9.

وتقنياته التي وردت في «كتاب سيبويه»، يدلنا على ذلك اتخاذ سيبويه كلام العرب الفيصل في صحة وسلامة كل التراكيب اللغوية الرامية إلى التبليغ، وقد ذكرنا في مبحث آخر من البحث عناصر العملية التبليغية في الكتاب، وخصصنا جانباً من الدراسة لكل عنصر (المتكلم وأنواعه، المخاطب وأنواعه، غرض الكلام، والسياق).
نريد من خلال هذه المقارنة بين سيبويه وغرايس أن نثبت فكر سيبويه التداولي ومدى اتفاهه مع بول غرايس، وذلك من خلال قواعد التخاطب والحوار عند غرايس. وهذه القواعد هي:

1. قاعدة الكم

- إخبار السامع بالقدر الذي يحتاجه دون زيادة.
 - توافر القدر المطلوب من المعلومات.
 - يجب ألا توجز إلى حد الإخلال، ولا تطنب إلى حد الإفراط.
- توافق هذه القاعدة (تقنية الحذف والاختصار والاتساع) عند سيبويه، وقد أسهنا كثيراً في تحليل هذه التقنية ولا نريد تكرار ما قاله سيبويه في هذا الشأن تفادياً للضجر أو الملل الذي قد ينفر المتلقي من متابعة البحث.

2. قاعدة الكيف

- عدم إعطاء المتكلم معلومة لا يملك الدليل على صدقها أو صحتها (الإلغاز).
- لا تقل للمخاطب ما تعلم كذبه (باب الاستقامة).
- لا تقل شيئاً تعوزك في إثباته الحجة؛ أي ما ليست لك عليه بينة، (لذا لا يأتي سيبويه بقواعد نحوية عشوائية؛ وإنما يحتكم إلى فصاحة العرب وسننها، معتمداً في ذلك على شيوخه الخليل أو بالقياس على كلام فصحاء العرب).

3. قاعدة الورد

- مناسبة المقام لمقتضى الحال: سمعت تكبيرات القوم وكنت بعيداً عنهم ولكن على مرأى منهم، قلت: «الهلال ورب الكعبة».
- هيئة الحاج ← «مكة ورب الكعبة»
رجل يسد سها صوب القرطاس ← «القرطاس والله»
أحد الناس يقع عليه الضرب ← «زيداً»
- ليكن خطابك وارداً، أي ألا يكون متناولاً لأمر غير الموضوع الذي أنت بصدد، (مثال: جُحِرُ صَبَّ خَرِبٌ)، إذ خَرِبٌ صفة للجُحِرِ لا للحيوان «الضب»، (تنبيه سيبويه إلى هذا الخطأ الذي يقع فيه إلغاز أو عدم فهم النعت على من يعود).

4. قاعدة الكيفية

- وتشتمل على آداب الخطاب وطريقة أدائه.
- كن واضحاً: (دعوة سيبويه وحرصه على التوضيح وعدم الألغاز، تجنب الغموض، تجنب الالتباس، ليكن خطابك مركزاً، كن منظماً، كن مؤدباً)، ومثال ذلك قول سيبويه: «فَقِفْ على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسر»⁴⁷.
- وهو الاتفاق نفسه مع باحث مشهور في التداوليات وهو «ديكرو» الذي أشار إلى قوانين التواصل والتبليغ وهي:
- قانون الاهتمام
 - قانون الإخبارية
 - قانون الاستقصاء
 - قانون التلطيف

وإذا كانت هذه القواعد والقوانين متعلقة بالمتكلم، فللمخاطب كذلك حظٌّ من الاهتمام نفسه، عند كل من سيبويه، غرايس، وديكرو وكل الباحثين القدامى والمحدثين، ومن أمثلة قواعد الاهتمام ما يلي:

حسن سلامة السمع، حسن الانتباه، الرصيد اللغوي الكافي، الرغبة في التواصل، القدرة على الربط والاستنتاج والتأويل، القدرة على الاعتراض والمناقشة والتأييد.

ثم إن الأسئلة التي تحاول التداوليات الإجابة عنها تتفق تماماً مع ما جاء به سيبويه في كتابه، ومن أسئلة التداولية ما يلي:

47- سيبويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 266.

- من يتكلم؟ نوع المتكلم شاعر، متعلم، مخطئ أم ثقة؟
- إلى من يتكلم؟ ← نوع السامع في درجة المتكلم نفسها؟، منصت جيد؟، نائم؟، سادر؟، غافل؟...
- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ نوع الرسالة ويمجدها السياق
- ما مصدر التشويش والإيضاح ← الغموض، اللبس، الألغاز مثال ذلك: رويد ورويدك، بإضافة (الكاف) لمخاطبة من هو وسط جماعة وحتى يتنبه المعنى بالنداء والخطاب من غير المعنى أي (الكاف) لرفع اللبس والإيضاح.
- كيف نتكلم بشيء ونريد شيئاً آخر؟ المجاز، الكناية.
- والإجابة عن هذه الأسئلة تستدعي استحضار مقاصد التخاطب وأفعال اللغة ببعديها المقامي والمقالي التداولي، وهذا يحدده كما مر بنا نية المتكلم ووظيفة الكلام، وسياق الموقف.

ز. سببوه ونظرية الحجاج

في كتاب سببويه تحضج حججه للتراتبية والتنظيم من حيث: القوة والضعف، والبده والختم، والإبطال والإثبات، والحسن والقيح، والمحال والكذب، الجيد والشاذ...

يدلي سببويه بحججه حتى لا يشك شك في استنباطه للقواعد والخروج بالأحكام، مدعماً أقواله بالشواهد المختلفة التي استقاها من البيئة العربية، أي من واقع المخاطب، فهو إما يثبت له أمراً (قاعدة) أو يزيل عنه الشك في قضية، أو يذكره بشيء لم ينتبه إليه في لغته، أو يوضح له سلامة تركيب أو خروجه عن كلام العرب، أو أن العرب لم تتكلم به، بعرضه للمثال أولاً، ثم استخراج الحكم الإعرابي ثم القاعدة، مستشهداً على ذلك بما يناسب المقام، إن آية أو شعراً أو نثرًا، متوقعاً أن المتلقي لكلامه ربما لن يقتنع، أو سيؤاخذ على قاعدة ما، لذلك فهو -كما نرى- لا يترك مجالاً للشك، وكأنه يحيطه من كل جانب حتى لا يجد المتلقي مفرًا من الاقتناع بما قاله، والانصياع لقواعده النحوية السابقة من الاستعمال.

وإذا كانت نظرية الأفعال الكلامية تتمركز حول الذات المتكلمة، فإن حجج سببويه تتمثل في تحديد (نية المتكلم)، وذلك أن سببويه متكلم متلق في الآن ذاته، والحجة تقوم على الدليل الذي يقتضي (الغلبة والظفر)، بينما الحجاج يقوم على أساس التخاطب بين المتكلم السامع اللذين يتحاجان في أمر أو قضية يستلزم دليلاً أو حجة، ولذلك وجدنا سببويه يقدم الشواهد كأدلة وحجج على ما نحو هذه من استنباطات معتقداً أن هناك متلقيًا يستعرضه، ولذا فهو لا يترك الفرصة لذلك ربما لوعيه وإن يتمثل بالمصطلح الحجاج، أن «الحجاج كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»، وأن الحجاج يؤطره التفاعل وكأن كل المظاهر موضوعة على قانونه ومفهومه على مقتضاه.

أ. أنواع الحجج في كتاب سببويه

1. البصر بالحجة

يتوفر الكتاب على هذا النوع من الحجج، وقلنا بأن سببويه لا يترك الفرصة ليعترض عليه معترض في استنباط قواعده وأحكامه، لذلك فهو يهرع إلى سد السبيل على المتلقي حتى لا يجد منفذاً إلى استضعاف الحجة أو الخروج عن دائرة فعلها، ولذلك قال الجاحظ: «جماع البلاغة بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة»⁴⁸. وشواهد الكتاب كلها حُججٌ لقواعد واستنباطات وأحكام سببويه، الفصيل فيها أنها مستمدة من الواقع اللغوي للعرب في عصره.

2. ترتيب الحجج

الواضح أن ترتيب أبواب سببويه بدءاً بالنحو وانتهاءً بالأصوات كان له ما يبرره، وهو أننا نرتب أفكارنا أولاً في الذهن من حيث الدلالة، ومن حيث السلامة اللغوية، ثم نطقها أصواتاً، ولذلك ابتدأ سببويه كتابه بما يجب أن يتبدى به ذكي عالم بلغته «هذا باب علم ما للكلم من العربية»، «فالكلم: اسم وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، فالاسم: رجل، فرس وحائط، وأما الفعل، فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ونسبت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع،...، وأما ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل، فنحو: ثم، سوف، وواو القسم، ولام الإضافة، ونحوها»⁴⁹.

فالملاحظ أنه قد ذكر الأسماء، ثم الأفعال، ثم الحروف، مرتباً إياها حسب القوة والضعف، وحيث الثبوت والتحول، وحسب البناء والإعراب، وحسب الزمن الماضي والمضارع المجزوم، المضارع المنصوب، ثم الأمر، شارحاً محللاً معللاً كل ضرب من

48- أبو عمرو الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: درويش جويدي (بيروت: المكتبة العصرية، 2001)، ج 1، ص 63.

49- سببويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 12.

ضروب الكلم، وانطلاقاً من «باب علم ما الكلم في العربية» سيطبق قواعده وأحكامه التي لا تخرج عن انتحاء سمت كلام العرب.

- فالمقدمات هنا: الكلم: اسم وفعل وحرف لمعنى ليس باسم ولا فعل.
- هنا يدخل عنصر الاستمالة والتأثير لمعرفة كل ضرب أو كل قسم من أقسام الكلم.
- استعمال ما في الواقع لدعم وتطعيم كلامه.
- الاسم: رجل، فرس، حائط.
- الفعل: تحديد الزمن (الماضي، المضارع، الأمر).
- الحرف: مثل: ثم، سوف، واو القسم، لام الإضافة ونحوها.
- فالملاحظ أن هذا الباب استمالة ودعوة لمتابعة كل أبواب الكتاب، يدلنا على ذلك قوله: «...فهذه الأمثلة التي أخذت من لفظ أحداث الأسماء، ولها أبنية كثيرة ستبين إن شاء الله»⁵⁰.

ب. سيبويه وبريلمان وتيكاه

يقولان إن «موضوع الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»⁵¹، وفي المؤلف نفسه يذكر الباحثان الغاية من الحجاج، فيؤكدان أن «غاية كل حجاج أن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج هو ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوي درجتها لدى السامعين بشكل يحثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وفق -على الأقل- في جعل تحفيز السامعين للاستعداد للقيام بذلك الفعل في اللحظة المناسبة»⁵²، وقد اصطلح سيبويه على القصد بـ(نية المتكلم والمقام والحال) وهما أساسيان لكل خطاب حجاجي.

ويتفق سيبويه مع بريلمان، إذ يجب على المتكلم -وفق بريلمان- التركيز على معايير الأولوية فيما يتعلق بعلاقة المخاطبين مع المقام والموضوع معاً، وكان سيبويه قد أدرك أنه سيكون أكثر تأثيراً، إذا استثمر حقائق فعلية أو أحداثاً معينة، لا يشك المخاطبون في ثبوتها المرجعية بقوله: «وهو عربي جيد كثير»، حتى لا يقدر ابن اللغة في لغته.

ويرى «بريلمان» أن المقام هو الذي يساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم، وكان هذا الكلام يصنف سيبويه في فئة المبدعين حسب «بريلمان».

ولقد كان الحجاج دومًا وبشكل عام دفاعاً عن ملفوظ أمام ملفوظات أخرى⁵³، لهذا يقول جيلالي دالاش عن حقل التداولية «إنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث»⁵⁴، لأنها تبحث في معرفة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه، وقد لمسنا هذا الجانب بوضوح في الكتاب، حين أشار سيبويه في أكثر من موضع إلى «نية المتكلم» و«وظيفة الكلام»، معتمداً في ذلك الاستعمال الحي للغة الطبيعية داخل مجتمعه العربي الفصيح، ويحضرني في هذا المقام قول سيبويه: «سير عليه ليل»⁵⁵، إذ حذف سيبويه الصفة (طويل) لعلمه أن الحال تدل على موضعها، وقوله كذلك: «كان والله رجلاً» فتزيد في قوة اللفظ باسم الجلالة «الله» وذلك أن يكون المقام مقام مدح لخصال الرجل، فتمطيط اللام، وإحالة الصوت يُوحِيَان بأنه: (رجل فاضل شجاع)، وكذلك في مقام الذم، نحو قوله: «سألناه وكان إنساناً» وتزوي وجهك وتغطيه فيغني عن ذلك قولك: (إنساناً لئيمًا) أو (بخيلاً).

ونُذَكِّرُ أن أفعال اللغة المتداولية حسب أوستين هي: أكد، أنكر، أجب، اعترض، وهب... في حين أن التعبيرات الإنجازية مرتبطة بالسياق ومنها: أجب، أستنبط، أستخلص، أعترض... وهدفها الأقوال اللاحقة بالأقوال السابقة، وهذه الأقوال تأكيدية عامة، وهذا ما نجده في الكتاب، إذ تحدث سيبويه عن العلاقات المنطقية والدلالية، مثل: الشرط والسببية والاستلزام والاستنتاج

50- سيبويه، الكتاب. المرجع السابق، ج 1، ص 12.

51- Pérélan and Tytéca, *Traité de l'argumentation*, p. 5.

52- سيبويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 59.

53- مانويل ماريا كارلو، خطابات الحدائث، ترجمة: إدريس كثير وعز الدين خطاب (ط 1، فاس: دار ما بعد الحدائث، 2001)، ص 74.

54- الجيلالي دالاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد مجياتن (ديوان المطبوعات الجامعية، 1983)، ص 1.

55- سيبويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 220.

والتعارض، وكلها علائق حجاجية استدلالية، وهو ما يدعى بمنطق الخطاب أو المنطق الطبيعي.

ج. سيبويه وشارل موريس

ميز «موريس» في كتابه «أسس نظرية الرموز (1938)» بين ثلاثة عناصر تدخل في تحديد الرمزية وهي⁵⁶:

- الرمز من حيث هو علامة.
 - الرمز من حيث هو دلالة.
 - الرمز من حيث هو محل للتأويل.
- حيث نقل هذا التقسيم الثلاثي للرمز من المنطق إلى اللسانيات؛ فميز بين مستويات ثلاثة تحدد العلاقة بين علم الدلالة والتداولية وتتعاقد وتعاقبًا خطيًا.

- المستوى التركيبي: يعني بتحديد قواعد التأليف، أي جُملاً لغوية، والكلمة المفتاح في هذا الطور هي النحوية، افتتح سيبويه كتابه «باب علم ما للكلم من العربية».
- المستوى الدلالي: يعالج علاقة العلامات بمرجعها أو مدلولاتها.
- الاسم: إنسان، حيوان، حائط.
- الفعل: ماضي، مضارع، مستقبل.
- الحرف: ثم، سوف، واو القسم...

بالإضافة إلى «باب الاستقامة والمحال»، حيث يذكر:

- المستقيم الحسن: أتيتك أمس وسأتيك غداً.
- المحال: أتيتك غداً، وسأتيك أمس (نقض أول الكلام).
- المستقيم الكذب: حملت الجبل، وشربت ماء البحر.
- المستقيم القبيح: قد زيدا رأيت، وكى زيدا يأتيك.
- المحال الكذب: سوف أشرب ماء البحر أمس.

إذ تكمن قيمة هذه العبارات في الصدق والكذب، أي السلامة اللغوية والعدول (ولا يعني سيبويه بذلك الصدق والكذب الأخلاقيين) بل المجاز وغيره من الانزياحات التي تزيد الخطاب توضيحاً أو قوة أو جمالاً ومتعة.

- المستوى التداولي: يدخل في هذا المستوى عنصر التأويل للرموز والعلامات الموجودة في الخطاب، أو التي يتلفظ بها المتكلم مخاطباً مستمعاً.

وهذا لا يتحقق إلا باستيفاء الكلام لشروط القول وقدرته، التأثيرية وتطرح في هذا المستوى أمثلة من مثل: هل يناسب القول المقام، أم أن الأمر على خلاف ذلك؟ ما هي الأفعال الكلامية التي تسمح بإنجازه (الإثبات، الاستفهام، النفي، التمني...؟)، ما هي طبيعة رد فعل المخاطب (استنكار، الإجابة بسؤال؟)، يذكرنا هذا بتقنية الاستفهام والأمر، النداء والندبة، والتعجب عند سيبويه. والتي قمنا بدراستها في مبحث المتكلم عند سيبويه ودوره في الخطاب/الكلام.

د. العوامل الحجاجية في الكتاب (سيبويه، ديكر ووانسكومير)

ليست مظاهر التللفظ في بعض جوهرها سوى عوامل حجاجية تدرج في الأقوال، فتكيف تأويلها وفق غاية المتكلم، حيث إن هناك ألفاظاً وكلمات ذات قيمة حجاجية نحو الرابط الحجاجي «لكن» الذي يقدم قرائن معنوية تبين المراد من الخطاب، وتوجه طريقة تأويل العلاقة بين المحتويين الخبريين، جاء في «هذا باب المبدل من المبدل منه، والمبدل يشرك المبدل منه في الجر»، وذلك قولك: مررت برجل حمار، فهو على وجه محال، وعلى وجه حسن، فأما المحال أن تعني أن الرجل حمار، وأما الذي يحسن فهو أن تقول مررت برجل، ثم تبدل الحمار مكان الرجل فتقول: حمار، إما أن تكون قد غلطت، أو نسيت فاستدركت، وإما أن يبدو لك أن تضرب عن مرورك بالرجل، وتجعل مكانه مرورك بالحمار، بعدما كنت أردت غير ذلك، ومثل ذلك قولك: لا (بل) حمار... ومن ذلك ما مررت برجل (بل) حمار، وما مررت برجل (لكن) حمار، أبدلت الآخر من الأول وجعلته مكانه...

56- شال موريس، أسس نظرية الرموز.

ولو ابتدأت كلامك فقلت: ما مررت برجل و(لكن) حمار، تريد (ولكن) هو حمار، كان عربيا، أو (بل) حمار، أو (لا بل) حمار، كان كذلك، كأنه قال: ولكن الذي مررت به حمار⁵⁷.

ويستشهد على هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾⁵⁸، فهذا على أنهم كانوا قد ذكروا الملائكة قبل ذلك بهذا، وعلى الوجه الآخر والمعرفة والنكرة في (لكن) و(بل) و(لا بل)، سواء⁵⁹، وقوله كذلك: «... ما مررت بزيد ولكن عمرو، وابتدأ بنفي ثم أبدل مكانه يقينا»⁶⁰.

فالاستدراك بـ(لكن) أو (بل) يوجه دلالة القول كله إلى سلب نتيجة الجمل المستدركة، أما في المستوى الدلالي فيقع ربط دلالة القول بسياقه حيث تدخل اعتبارات التخاطب بين المتكلم والمستمع، ومكان القول وزمانه وكل المعطيات المقامية.

وفي تصورهما للتداولية المدججة، سعى كل من ديكر و انسكومير إلى صياغة دلالة الخطاب لسانيا من خلال تحديد العلاقات بين المضمرة والمصرح به، وحسب تصورهما فإن القول المصرح به ما هو إلا حامل لخلاصة مقترحة من قبل متغيرات حجاجية ملازمة للجملة، سواء أوافق المتلقي عليها أم لم يوافق، وذلك أن الحجاج يظهر في كيفية تسجيل اللغة الطبيعية لخلاصة ما، أو اقتراحها أو تضمينها أو إظهارها أو اقتضاها⁶¹.

وهذا الذي ذهب إليه سيويه في المثال السابق: مررت برجل و«لكن» حمار، قائلًا: «وإذا كان قبل ذلك منعوت فأضمرته، أو اسم فأضمرته أو أظهرته، فهو أقوى، لأنك تضمير ما ذكرت وأنت هنا تضمير ما لم تذكر، وهو جائز عربي، لأن معناه: ما مررت بشيء هو رجل، فجاز هذا كما جاز المنعوت المذكور نحو قولك: [ما] مررت برجل صالح (بل) طالح»⁶².

هـ. المراتب الحجاجية

توحي هذه المراتب بأن للحجة الواحدة مراتب، لا يلبث التحليل أن يكشف أنها الأصل في القوانين التي يتحدد بها الصنف الاستدلالي المعروف باسم «الاستدلال التمثيلي»، وهذه المراتب أشكال كما مر بنا في مبحث التقنيات الحجاجية الاستدلالية، وهي أنواع:

1. المراتب المضادة

يمثلها قول سيويه في «هذا باب ما ينصب من المصادر على إضمار الفعل غير المستعمل إظهاره، وذلك قولك: «سقيًا ورعيًا»، ونحو قولك: «خبيبة ودقرا، وجوعًا وعقرا وبؤسا، وآفة وثفة، وبعداً وسحقًا»، ومن ذلك قولك: «تسًا وتبًا وجوعًا وجوسًا»⁶³، التي ترتب حسب التدرج التالي:

نشير في نهاية هذا البحث أن كل ما أورده سيويه منذ قرون مضت، يتضمن كل النظريات اللسانية والنقدية الحديثة. وإن لم يكن سيويه لم يمثل المصطلحات الحديثة، فلأنها ليست من بنات عصره، ولا بنات اللغة العربية، بل إن معظم المصطلحات هي نتاج الترجمات المتعددة بالإضافة إلى التعريب. وإلا لقلنا إن سيويه هو أبو علوم اللغة كلها، وليست اللسانيات وحدها، وحسب ما أوردنا؛ فإن سيويه يلتقي مع كل المنظرين العرب المحدثين في نظرياتهم العلمية التي لا يمكن الاستغناء عنها، في حين إن العودة إلى كتاب سيويه وبنوا من القراءة الواعية والمعقدة، تغنينا عن كل الدراسات الحديثة. لا من باب عدم الانفتاح على الآخر، بل من باب الأسبقية والعلمية.

57- سيويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 2، ص 439.

58- سورة الأنبياء، الآية: 26.

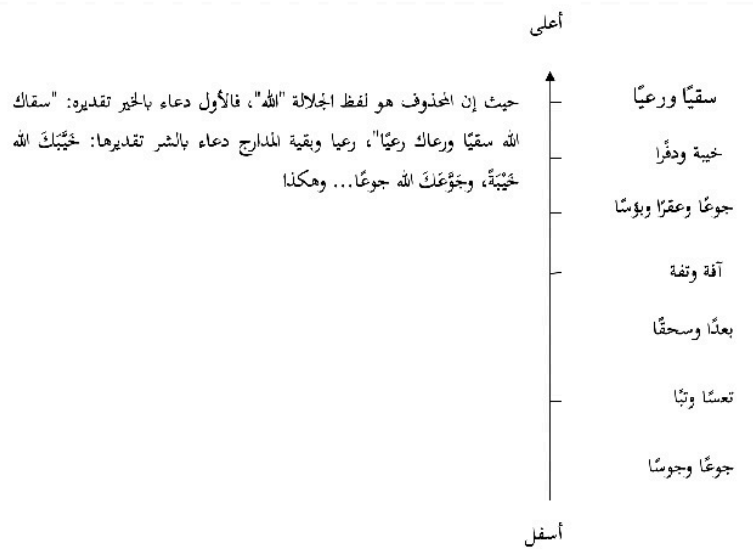
59- سيويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 440.

60- المرجع نفسه.

61- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1998) ص 276.

62- سيويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص: 440.

63- المرجع نفسه.



ويحتج سيبويه لقوله السابق، بقول ابن ميادة:

بِجَارِيَةِ بَهْرًا هُمْ بَعْدَهَا بَهْرًا⁶⁴

تَفَاقَدَ قَوْمِي إِذْ يَبِيعُونَ مُهْجَتِي

والتقدير هاهنا قوله: «فقد قومي بعضهم بعضًا إذا لم يُعِينُونِي على جارية شغفت بحبها، فكأنهم باعوا مهجتي، دعا عليهم بالتفاد وبالغلبة والقهر»⁶⁵.

ويقول سيبويه شارحاً معللاً ومستدلاً: «وإنما ينتصب هذا وما أشبهه، إذا ذكر مذكور فدعوت له أو عليه، على إضمار الفعل، كأنك قلت: سقاك الله سقيًا، ورعاك الله رعيًا، وخيبك الله خيبةً، فكل هذا وأشباهه على هذا ينتصب»⁶⁶. ومثله قوله: «من ذلك قولك حمدًا وشكرًا لا كُفْرًا، وعَجَبًا، أو فعل ذلك كرامةً ومسرَّةً ونعمةً عني...»⁶⁷، والتقدير أحمد الله حمدًا...

2. المراتب الموجهة توجيهًا كميًا

يوجد هذا النوع في الألفاظ الدالة على معاني تشغيل التدرج في اتجاه واحد إما على مقتضى التزايد أو مقتضى التناقص، مثال ذلك قول سيبويه: «.. فقولك: هو مني فرسخان، وهي مني عروة الفرس، ودعوة الرجل، [وغلوة السهم]، وهو مني يومان، وهو مني فوت اليد، فإنما فارق هذا الباب الأول؛ لأن معنى هذا أنه يخبر أن بينه وبينه فرسخين ويومين، ودعوة الرجل وفوتا، ومعنى فوت اليد؛ أنه يريد أن يقرب ما بينه وبينه، فهذا على هذا المعنى، وحرى على الكلام الأول كأنه هو سعة الكلام، كما قالوا: أخطب ما يكون الأمير يوم الجمعة»⁶⁸، وقوله أيضًا: «وأما قول العرب: أنت مني مرأىً ومسمعٌ، فإنما رفعوه لأنهم جعلوه هو الأول، حتى صار بمنزلة قولهم: أنت مني قريب»⁶⁹.

3. المراتب الموجهة توجيهًا قصديًا

العامل المحدد لهذا النوع من المراتب هو قصد المتكلم، جاء على لسان سيبويه في «هذا باب تخبر فيه عن النكرة بالنكرة، وذلك قولك: ما كان أحدًا مثلك، وما كان أحدًا خيرًا منك، وما كان أحدًا مجترئًا عليك، وإِنَّهَا حَسَنَ الإِخْبَارِ هَاهُنَا عَنِ النُّكْرَةِ

64- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1994)، ومحمد بن يزيد المبرد، الكامل (القاهرة: دار الفكر العربي، 1997)، ص 381.

65- سيبويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 311.

66- المرجع نفسه، ج 1، ص 312.

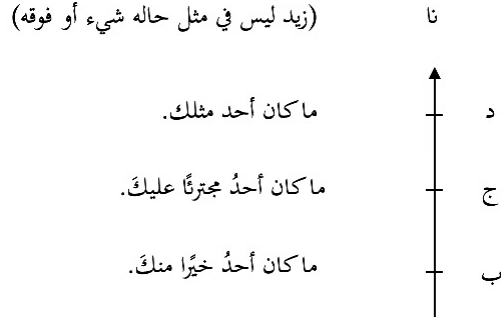
67- المرجع نفسه، ص 318.

68- المرجع نفسه، ص 415.

69- المرجع نفسه.

حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأن المخاطب قد يحتاج أن تعلمه مثل هذا»⁷⁰.

وفي السلم الحجاجي يمكننا إخضاع المثال السابق إلى الشكل الآتي، حيث ي، ج، د أدلة و(نا) ترمز إلى المدلول منها، و(د) يلزم عنه القول (ج)، و(ج) يلزم عنه القول (ب)، و(د) و(ج) أقوى إثباتاً للمدلول (نا)، وإن كل قول يختلف من ناحية درجة القوة والضعف عن الآخر في المعنى.



ومهما يكن من أمر هذه الحجج المستعملة في الكلام، فإن للمتكلم سلطة التغيير والتنويع في استعمال الحجج التي يود أن يقدمها من لحظة إلى أخرى.

و. قواعد السلم الحجاجي في الكتاب

1. قاعدة قلب التفاضل عند سيبويه

وذلك بترتيب قسم التفاضل في النفع والضرر نحو قوله: «ومنه: مررت برجل شرٍ منك، فهو نعت على أنه قد نقض أن يكون مثله»⁷¹، ومثله: مررت برجل مسلم وكافر.

2. قاعدة تفاضل الأطراف

إذا كانت إحدى المجموعتين تفضل الأخرى، فإن أفضل عنصر في المجموعة الفاضلة أفضل من أفضل عنصر في المجموعة المفضولة، نحو قول سيبويه: «واعلم أنه ليس كل موضع ولا كل مكان يحسن أن يكون ظرفاً، فمما لا يحسن أن يكون ظرفاً أن العرب لا تقول: هو جوف المسجد ولا هو داخل الدار ولا هو خارج الدار، وإنما فرَّقَ بَيْنَ خَلْفٍ وَمَا أَشْبَهَهَا وبين هذه الحروف؛ لأن خَلْفَ وما أشبهها للأماكن التي تلي الأسماء من أقطارها»⁷²، ثم يقول: «واعلم أن الظروف بعضها أشد تمكناً من بعض في الأسماء، نحو القبل والقصد والناحية، وأما الخلف والأمام والتحت فهن أقل استعمالاً في الكلام أن تجعل أسماء»⁷³.

3. قاعدة جمع التفاضل المركب

وقد مر أن عرضنا إلى هذه القاعدة في المثال الخاص بالاستدراك بـ«لكن» و«بل» في قول سيبويه: «ما مررت برجل لكن حماراً، ولكن حماراً...، مررت برجل صالح بل طالح»⁷⁴، فالرابط «لكن» ينفي أن يكون مر برجل؛ أي مر بحمار، وحينما استدرك خطأه ربط كلامه بالرابط الحجاجي «لكن»، وفي المثال الثاني، ينفي أن يكون قد مر برجل صالح، وإنما مر برجل طالح، وحينما استدرك خطأه استعمل الرابط الحجاجي «بل».

وإن كان «ديكرو» قد ابتدع مصطلح الروابط والسلام الحجاجية، فإن سيبويه قد وعى ذلك منذ قرون فقط أنه لم يتمثل هذه المصطلحات، وهذا شيء طبيعي، إذ لكل جيل عصره، وبكل ما يتميز به هذا العصر من خصائص ثقافية، معرفية، سياسية، اقتصادية وغيرها.

70- المرجع السابق، ص 54.

71- المرجع نفسه، ص 423.

72- المرجع نفسه، ج 1، ص 411.

73- المرجع نفسه.

74- المرجع نفسه، ص 440.

ولم يفت سيبويه أن يتحدث في كتابه عن كل ما يتعلق باستعمال اللغة، ومن ذلك الروابط الحجاجية، كالواو، والفاء، ثم سوف، حيث، لكن، بل، ذلك، وهي كثيرة تستدعي بحثاً خاصاً للتفصيل في كل رابط، ومثله قوله أيضاً: «ومن المبدل أيضاً قولك: مررت برجل (أو) امرأة؛ إنما ابتداءً بيقين ثم جعل مكانه شكاً أبدله منه، فصار الأول والآخر الادعاء فيهما سواء، فهذا شبيهه بقوله: ما مررت بزيد ولكن عمرو، ابتداءً بنفي ثم أبدل مكانه يقيناً، وأما قولهم: أمررت برجل (أم) امرأة؟ إذا أردت معنى أيها مررت به؟ فإن (أم) تشرك بينهما كما أشركت بينهما (أو)، وأما: ما مررت برجل (فكيف) امرأة...، قال هو بمنزلة: (أين)»⁷⁵.

فالملاحظ أن الروابط الحجاجية يكمن موضوعها أساساً في تحديد بنية الخطاب، لكونه آلية في عملية الربط داخل النسق المقول؛ لذلك اهتم التنظير بموضوع الرابط في اللغات الطبيعية - كما سبق الذكر، وهناك من يسميها بالقرائن، ويتمثل دورها في فهم الأبعاد التواصلية وترتيب الأغراض التي يقتضيها الخطاب/الكلام.

وتشمل الروابط الحجاجية كل الحروف والظروف وأدوات الاستثناء والنفي، إذ بعضها يدعى العوامل الحجاجية، وبعضها يعد رابطاً نحويًا (كالواو والفاء)، وغيرها من حروف العطف، على أن هذه الروابط تشارك في إنجاز الأغراض اللغوية المباشرة وغير المباشرة، مما يسمح بالتأويل. وتسمى الروابط الحجاجية؛ بالقيود الاستدلالية لأنها تعين على فهم المعنى الظاهر والخفي.

ولذلك، فعندما يؤول المخاطب، جملة يسعى إلى إنجاز غرض استدلالي يعالجه في علاقته مع النتيجة التي يمكن أن تدور باعتبارها حديثاً منعزلاً.

المراجع

- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب بيروت: دار صادر، 1994.
- الجاحظ، أبو عمرو. البيان والتبيين. تحقيق درويش جويدي، بيروت: المكتبة العصرية، 2001.
- الخالدي، سارة. أثر سياق الكلام في كتاب سيبويه.
- الراجحي، عبده. النحو العربي. بيروت: دار النهضة العربية، 1979.
- السعدان، محمود. علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي. مصر: دار المعارف، 1962.
- الطليحي، ردة. دلالة السياق. رسالة دكتوراه، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، 2002.
- المبرد، محمد بن يزيد. الكامل. القاهرة: دار الفكر العربي، 1997.
- الموسى، نهاد. نظرية النحو العربي. ط 1، عمان: كلية الآداب بالجامعة الأردنية، 1987.
- الموسى، نهاد. «الوجهة الاجتماعية في منهج سيبويه»، مجلة حضارة الإسلام. ع 1، (1974).
- خليل، حلمي. من تاريخ النحو العربي. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1995.
- دلاش، الجيلالي. مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.
- دي سوسير، فرديناند. محاضرات في اللسانيات العامة. ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، 1987.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. الكتاب. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988.
- عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1998.
- كاريلو، مانويل مارييا. خطابات الحداثة. ترجمة: إدريس كثير وعز الدين خطاب، ط 1، فاس: دار ما بعد الحداثة، 2001.
- موريس، شال. أسس نظرية الرموز.
- نصر الدين، بوحساين. «سيبويه والنقد اللساني العربي»، مجلة دراسات أدبية، دورية محكمة، مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعليمية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ع 8، (2010).
- Austin, J. L. *How to do things with words*. Oxford University Press, 1981.
- Clark, Herbert H. "Word association and linguistic theory", in *New Horizons in Linguistics*. England: Penguin Books, 1972.
- Forster, Michael. *Wittgenstein on the arbitrariness of grammar*. Princeton University Press, 2004.
- Lyons, John. *New horizons in linguistics*. England: Penguin Books, 1972.

75- سيبويه، الكتاب. مرجع سابق، ج 1، ص 440.

- Lyons, John. *Chomsky*. The Harvester Press.
- Malinowski, Bronislaw. *The dilemma of contemporary linguistics in language in culture and society*, New York: Harper and Row, 1964.
- Malinowski, Bronislaw. "The Problem of Meaning in Primitive Languages", Supplement I to
- Ogden, C. K./Richards, I. A., *The Meaning of Meaning* (London: Routledge/Kegan Paul), 1923.
- P  r  laman and Tyt  ca, *Trait   de l'argumentation*.
- Wittgenstein, Ludwig. *Philosophical Investigations*. Oxford: Blackwell Publishing, 2001.
- Wittgenstein, Ludwig. *Rules, grammar and necessity*. Baker G.P. Oxford, 1985.